شـــــرح

وصية سفيان الثـوري

لـعــبـــاد الزاهـــــــد

للـــشيــــخ

بنــــدر ردن الــــحارثي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدلله رب العالمين والصلاة على أشرف الأنبياء والمرسلين وبعد ..

اخواني المسلمين قرأت هذه الوصية في الجرح والتعديل[١] لسفيان الثوري – رحمه الله تعالى – **إمام أهل السنة، والأثر في زمانه إلى عباد بن عباد الزاهد الورع، ووجدتها حوت على توجيهات سديدة ونصائح قيمة مفيدة يحتاجها كل طالب علم في كل زمان ومكان فأحببت أن أفردها في صفحات وأعلق عليها تعليقات حتى يتسنى للقارئ فهمها والعمل بها نسأل الله الأجر والمثوبة والإخلاص .**

للتواصل والاستفسار :

٠٥٣٧٦٨٣٢٣٤

(١) ٨٦/١

رسالة الإمام الثوري إلى عباد بن عباد : ذكرها ابن أبي حاتم في ترجمة سفيان في مقدمته للجرح والتعديل، بسنده إلى محمد بن يوسف الفريابي قال : كتب سفيان بن سعيد إلى عباد بن عباد :

- **فقال : (من سفيان بن سعيد إلى عباد بن عباد : سلام عليك)**

الإمام الثوري هو : أبوعبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، ولد سنة ٩٧ هـ، وتوفي سنة ١٦١ هـ رحمه الله .

قال عنه أبوبكر الخطيب البغدادي : كان إماماً من أئمة المسلمين وعلماً من أعلام الدين، يجمع على إمامته بحيث يستغني عن تزكيته مع الإتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد .(١)

وعباد بن عباد ابن حبيب بن الأمير المهلب الأزدي البصري الحافظ الثقة، أبو معاوية .

وقال عنه ابن سعد : لم يكن بالقوي في الحديث وهو ثقة، توفي في رجب سنة ١٨١هـ ولعله لم يكمل السبعين .(٢)

- **وقال -رحمه الله- : (سلام عليك)**

وإذا وصل المسلم كتاباً من أخيه فيه سلام، فالواجب أن يرد السلام فوراً باللفظ إذا قرأ الكتاب، وقد صرح بذلك الشافعية والحنابلة، أنظر كتاب الأذكار للنووي.

وأما جواب الرسالة فليس واجب في الأصل إلا أن يكون هناك ما يوجبه كأن يتعلق بالرد مصلحة، أو دفع مفسدة ونحو ذلك .

- **قال -رحمه الله- : (فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد)**

والحمد : إثبات الكمال لله مع المحبة والتعظيم.

وقال شيخ الإسلام -رحمه الله- : الحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بالمحبة. (٣)

- **وقال -رحمه الله- : (فإني أوصيك بتقوى الله فإن اتقيت الله عز وجل كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً)**

بدأ سفيان الثوري - رحمه الله- الوصية بتقوى الله؛ لأنها وصية الله لخلقه وعليها يقوم الدين .

والتقوى قال ابن كثير عنها : اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .(٤)

وحكم التقوى يتفاوت؛ فتكون واجبة إذا كانت التقوى في فعل واجب أو ترك محرم، وتكون مستحبة إذا كانت بفعل مندوب أو ترك مكروه .(٥)

---

(١) تاريخ بغداد ٩/ ١٥٢
(٢) سير أعلام النبلاء ٧ / ٠٧٣
(٣) منهاج السنة ٥/٤٠٤
(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٩٢٤
(٥) شرح عمدة الفقه لابن تيمية ٣ / ٦٢٧

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في التقوى : هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه .[١]

فكل خير في الدينا والآخرة من ثمرات التقوى، فيها يحصل الفلاح في الدارين، وبها ينال العبد رضوان الله الذي هو أعظم من الجنة وما فيها ، وبها يدخل العبد الجنة، وبها ينجو من النار.

وقال ابن تيمية : الخير كل الخير في لزوم التقوى واجتناب المحرمات .[٢]

- **وقال -رحمه الله- : (سألت أن أكتب إليك كتاباً أصف لك فيه خلالاً تصحب بها أهل زمانك وتؤدي إليهم ما يحق لهم عليك وتسأل الله عز وجل الذي لك)**

والحقوق : أعظمها حق الله سبحانه وهي مبنية على المسامحة، ثم حقوق الناس وهي مبنية على المشاحة.

فالواجب على المسلم أن يؤدي حقوق الناس عليه؛ حتى لا يطالب بظلمه يوم القيامة، وفي المقابل عليه أن يتخفف عن حقوقه ولا يطالب من حوله بكل حقه .

وقال شيخ الإسلام : العارف لا يرى لناس عليه حقاً .[٣]

- **قال -رحمه الله- : (وقد سألت عن أمر جسيم، الناظرون فيه اليوم المقيمون به قليل، بل لا أعلم مكان أحد، وكيف يستطاع ذلك؟ وقد كدر هذا الزمان، إنه ليشتبه الحق والباطل، ولا ينجو من شره إلا من دعا بدعاء الغريق، فهل تعلم مكان أحد هكذا؟ وكان يقال : يوشك أن يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم)**

يقول سفيان الثوري -رحمه الله- عن مسألة عباد بن عباد : أنها عظيمة وأصحاب الحق في زمانه قليل، حتى لا يعرف لهم مكان، ويقول عن زمانه : بالكدر، فكيف بالأزمان من بعده يرحمه الله، خاصة زماننا الذي نعيشه وقد انتشرت فيه الفتن واختلط فيه الأمر.

وقد قال حذيفة - رضي الله عنه - : **(يأتي عليكم زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق)** .[٤]

وله شاهد من أثر أبي هريرة رواه ابن أبي شيبة في مصنفه بإسناد رجاله ثقات، والبيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني، وصححه عبد الله السعد موقوفاً .

والمراد أن صدق اللجوء والإكثار من الدعاء هو ما يحتاجه المسلم في كل زمن وفي زمن الفتن بشكل خاص .

- **وقال -رحمه الله- : (فعليك بتقوى الله عز وجل)**

وكرر سفيان الثوري الوصية بالتقوى تأكيداً لها وزيادة في الحث عليها، وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾،[٥] إعلام بأن منزلة الرفعة عند الله في الدنيا والآخرة لا تنال إلا بالتقوى فقط ، وأن عديم التقوى ليس له قيمة عند الله بتاتاً، فيجب على العارف أن لا يفضل أحد من الناس إلا بتقوى الله وطرح اعتبارات أهل الدنيا.

(١) سير أعلام النبلاء ٤ /٦٠١
(٢) الفتاوى الكبرى ٦ /١١٧
(٣) الفتاوى ١١/ ١٥١
(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه ٣ / ١٢٥
(٥) الحجرات : ١٣

- **وقال -رحمه الله- : (والزم العزلة واشتغل بنفسك)**

وقد جاءت العزلة في القرآن والسنة لمعان عديدة تتراوح بين المفارقة الكلية المطلقة وهي : عندما يكون الناس ليس لهم جماعة ولا إمام، وبين المفارقة الجزئية وهي : العزلة التي يقصدها سفيان الثوري -رحمه الله- في هذه الوصية، والتي أشار لها النبي ﷺ وهو الزمان الذي يتعذر فيه إصلاح العامة، لاختلاف الناس وتناحرهم وغلبة الشر وأهله، وقد بين رسول الله ﷺ أنه يشرع للمرء في هذا الحال أن يقُبل على خاصته ويذر أمر العامة، وخاصته قيل : نفسه، وقيل: أهل بيته ومن يعول ،وقيل : هم خاصة أصحابه، لذلك يقول ابن مسعود - رضي الله عنه - : (**خالطوا الناس وزايلوهم وصافحوهم ودينكم لا تكلموه)**،[١] أي لا تجرحوه.

وأشار الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين إلى وجوب الاعتدال في المخالطة والعزلة، واختلاف ذلك باختلاف الأحوال .[٢]

وقال إبراهيم النخعي لمغيرة : تفقه ثم اعتزل .[٣]

وترجيح الخلطة المقصودة في الأحوال الطبيعة مذهب جماهير السلف، وقد ذكره النووي، ونسبه الشافعي إلى أكثر العلماء،[٤] ونسبه ابن حجر إلى الجمهور ولأحمد .[٥]

- **قال -رحمه الله- : (واستأنس بكتاب الله عز وجل)**

الاستئناس والسعادة هي : سكون النفس وطمأنينتها، وهدوء الخواطر لديها، فلا تفكير في ماضٍ يبعث عليها الحزن، ولا تتطلع لمستقبل يزيد الهم، والسعادة بهذا المعنى لا يمكن أن تأتي للإنسان من خارجه بل إن مبعثها من داخل ذاته.

ومن هنا يأتي دور القرآن في بث السعادة، قال تعالى : ﴿**فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾[٦]

قال ابن عباس -رضي الله عنه- : (**فضمن الله لمن اتبع القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة)**.[٧]

فكلما ازداد اقتراب المرء من القرآن؛ ازداد شعوره بالأمن والسكينة .

وكثير العالمون، وقليل العاملون.

قال ابن مسعود -رضي الله عنه- : إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فمن دخل فيه فهو آمن .[٨]

ولكي تدخل في دائرة الاستئناس بكتاب الله تأمل سيرة أصحاب محمد ﷺ ستجد أمراً عجيباً ، ستجد أنهم كانوا يتسابقون على فهم القرآن والعمل به وكثرة قراءته أكثر من تسابقهم على حفظه بل إن الحفاظ فيهم كانوا قلة، وأخرج ابن سعد في طبقاته عن محمد بن سيرين قال : قُتل عمر –رضي الله عنه- ولم يجمع القرآن.[٩]
ونقل الحسن البصري أنه ما استكمل حفظ القرآن من أصحاب النبي ﷺ إلا القليل استعظاماً له ومتابعة لأنفسهم بحفظ تأويله والعمل بحكمه .[١٠]

---

(١) رواه الطبراني وغيره بإسنادين رجال أحدهما ثقات وقال الهيثمي : وهو صحيح
(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٤٢
(٣) الخطابي في العزلة ٢٢٥
(٤) شرح مسلم ١٣ / ٣٤
(٥) فتح الباري ١٣ / ٤٣
(٦) طه : ١٢٣-١٢٤
(٧) الجامع لأحكام القران ١١ / ١٧١
(٨) فضائل القران للفريابي ١٦٦
(٩) طبقات ابن سعد ٢٢٤/٣
(١٠) الحسن البصري لابن الجوزي ٩٨

وليس معنى هذا هو إهمال الحفظ بل معناه الاجتهاد في العمل بما تدل عليه الآيات المحفوظة وعدم الاستعجال في الحفظ حتى لا يتم إهمال الفهم والعمل .

ويقول أبو عبدالرحمن السُلمي التابعي (والذي تتلمذ على يد كبار الصحابة) : حدثنا الذي كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وابن مسعود وغيرهما -رضي الله عنهم- أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً .[١]

ولكن نعيد ونقول كيف ندخل دائرة الاستئناس والسعادة بالقرآن؟ والقرآن ذكر الله سبحانه أنه يقوم بتوصيل تيار الحياة إلى القلب فيفيق من غفلته ويحيا بعد موته وينطلق إلى ربه، ويقول تبارك وتعالى : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢]

وأكبر عقبة تواجه المسلم نحو الانتفاع بالقرآن والاستئناس به هي تلك الصورة الموروثة عنه في ضبط الشكليات من أحكام التجويد ومخارج الحروف وحسن الأداء، وغاية الجهد إتقان الشكل، وقد لا يعيب الناس عليه عدم إدراك المعنى قدر عيبهم عدم إتقان اللفظ .

ونحن هنا لا نهون من أهمية ضبط الشكل وحسن الإخراج ولكن ندعوا إلى إعادة النظر بالطريقة، حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتفكر والتدبر التي تترافق مع القراءة.[٣]

ولابد من كل مسلم يريد أن يدل الناس على القرآن أن يبدأ بنفسه أولاً وأن يشاهد القرآن يعمل داخله وأن يشرق نوره على قلبه وتظهر علاماته عليه والتي أخبر عنها رسول الله ﷺ عندما سأله أصحابه عن علامات دخول النور القلب فقال : ((**الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله**)) أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد .

ولا يعقل أن ندل الناس على شيء لا نعرفه ولم نتذوقه ولم نرى أثره ولنعلم جميعاً أن الإمداد على قدر الاستعداد وأن تفاوت الناس ليس في الإمكانات بل في الرغبات فمن لديه رغبة أكيدة في الوصول فإنه بعون الله سوف يبلغه .

إذن فلتكن غايتنا من قراءة القرآن الوصول لدرجة التأثير وهذا يستدعي منا القراءة اليومية للقرآن وأن تكون متصلة وبمدة معتبرة وأن يكون وردنا اليومي زمناً وليس كماً محدداً ولا نترك الورد والقراءة اليومية حتى الممات ولا نسمح بمرور يوم دون اللقاء مع القرآن ولا نتعجل قطف الثمرة قبل نضجها .

فإن كان الماء هو مادة الغيث الذي يسقي الأرض فيحييها بعد موتها وينبت فيها الزرع فإن القرآن هو مادة الغيث الذي ي يسقي القلب بأسباب حياته فينبت فيه الإيمان كما ورد في الدعاء ((**اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا**)) فإن لم تتعرض الأرض للماء باستمرار فإنها لن تنبت شيئاً وكذلك القلب إن لم يتعرض للقرآن باستمرار فلن ينبت فيه الإيمان الحي ولن تظهر ثماره المرجوة .

- **وقال -رحمه الله- : (واحذر الأمراء)**

وقد غلب على أحوال السلاطين بعد عصر الخلفاء الراشدين، وجود شيء من الظلم والجور، حتى لا يكاد مخالطهم والملازم لهم يسلم من رؤية منكر لا يستطيع له تغييراً، أو ظلم لا يستطيع له رفعاً أو حق مسلوب لا يستطيع له رداً .

---

(١) حديث القرآن عن القرآن لمحمد الراوي ١٨٥
(٢) الانعام ١٢٢
(٣) كيف نتعامل مع القرآن للغزالي ١٧

وقد حذر النبي ﷺ من إيتان السلاطين وملازمتهم في تلك الحال، حيث يفوته من الخير أعظم مما حقق؛ بل ربما لم يحقق نفعاً بالكلية، والشاهد حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال : قال رسول ﷺ : ((**من دخل على السلطان افتتن**))[١] وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أبوداود وإسناده جيد .

وهو بين فتنتين : فتنة السراء : بتعرضه للدنيا وزينتها، وفتنة الضراء : بتعرضه للإهانة والضرب والقتل وسائر المخاطر .

وقال أحمد -رحمه الله- : (فتنة الواثق أعظم من فتنة المأمون)؛ لأن الواثق أكرم الإمام أحمد وعرف له قدره، فالواجب على المسلم أن يحذر من كل ما يمس دينه أو يؤثر عليه .

وعن يوسف بن أسباط قال : سمعت سفيان الثوري يقول : إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السلطان فأعلم أنه لص، فإذا رأيته يلوذ بالأغنياء فأعلم أنه مرائي .[٢]

- **وقال -رحمه الله- : (وعليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم)**

ويستفاد من هذا : أن وصيته في الاعتزال، ليست للناس جميعاً، فهو أوصاه بالاعتزال عمن يخشى منهم على دينه، وأوصاه بالدنو من الفقراء والمساكين؛ لأن أغلبهم لا يشتغلون بالدنيا عن الآخرة.

وهم أيضا يذكرونك بالآخرة، ومجالستهم راحة إلى القلب .

قال الحسن البصري -رحمه الله- : إياكم ومجالسة الأغنياء؛ فإنها مسخطة للرزق .

وهم أي : الفقراء والمساكين أتباع الرسل، وهم أكثر من يدخل الجنة، ودخولهم قبل الأغنياء، لقوله ﷺ : **(يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم)**.[٣]

ولكن المقصود بالفقراء الصابرون العائذون الراضون، فكأن لسان حالهم : الحمد والشكر ولعله يقصد رحمه الله بالفقراء والمساكين من أهل العلم لأنهم أُقرب لهذا من غيرهم، والذين يقل أمثال هؤلاء في زماننا لتغير الحال وفساد الزمان، والله المستعان.

- **وقال -رحمه الله- : (فإن استطعت أن تأمر بخير في رفق فإن قبل منك حمدت الله عز وجل، وإن رد عليك أقبلت على نفسك فإن لك فيها شغلا)**

ومن خالط الناس سوف يرى شراً سواء من الفقراء أو غيرهم.

وبيّن أن الأمر بالمعروف لابد أن يكون بالرفق ولا ينصح بشرط القبول، ولكن إن قبُل منك فاحمد الله سبحانه، وإن لم يسمع منك، فاشتغل بنفسك وبذنوبك فإنها أحرى بالنصيحة ولك فيها شغلاً .

وقال شيخ الإسلام -رحمه الله- : إذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية وإذا تاب واستغفر وقال هذا بذنوبي صارت في حقه نعمة .[٤]

- **قال -رحمه الله- : (واحذر المنزلة وحبها فإن الزهد فيها أشد من الزهد في الدنيا)**

والمنزلة هي : الجاه والشهرة عند الناس والمكانة العالية والزهد في هذه الأمور يحتاجه كل من خالط الناس .

---

(١) رواه أبوداود وغيره ٢٨٥٩
(٢) حلية الأولياء ٣٠٥/٦
(٣) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .٢٣٥٣
(٤) قاعدة في الصبر ٩٤

وشهوة المنزلة من أخفى الشهوات وأدقها، ولا يسلم منها إلا من ابتعد عن المخالطة المذمومة، وأخلص النية وكان ابن مهران - رحمه الله - إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة.

وقال بشر بن الحارث - رحمه الله - : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس .(١)

وكان حوشب يبكي من الشهرة ويقول : بلغ اسمي مسجد الجامع .(٢)

وقال أحد السلف : ما صدق عبد طلب الشهرة ومعرفة الناس .

وفي السير عن سفيان قال لابن مبارك : إياك والشهرة فما أتيت أحداً إلا وقد نهى عن الشهرة .(٣)

والمذموم هو طلبهُا والسعي إليها، والمطلوب الحذر منها ومن منافذها وإذا حصل له شيء منها، يعدها بلاء ومصيبة، ويسأل الله الإعانة والسداد، فقد قال الإمام أحمد - رحمه الله - : ابتلينا بالشهرة .(٤)

وقال يوسف بن أسباط : سمعت سفيان الثوري يقول : ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإذا نوزع في الرياسة حامى عليها وعادى .(٥)

- **وقال -رحمه الله- : (وبلغني أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يتعوذون أن يدركوا هذا الزمان وكان لهم من العلم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركنا على قلة علم وبصر، وقلة صبر وقلة أعوان على الخير، مع كدر من الزمان وفساد من الناس)**

لقد رسخ النبي ﷺ في أذهان الصحابة -رضي الله عنهم- حتمية وقوع الفتن وتنوعها ومباغتتها للناس ودقتها وخفائها وغير ذلك من الصفات اللازمة للفتن مما يجعل المستشرف لها والخائض فيها في حيرة والتباس، فهب الصحابة -رضي الله عنهم- في تلقي نوع الفتنة والمخرج منها، وعقلوها وحفظوها وبلّغوها، واستعاذوا من إدراكها والوقوع فيها، ثم بيّن سفيان الثوري - رحمه الله - الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في الفتن وهي : قلة العلم؛ فالعلم يرفع الجهل ويهدي الحائر إلى درب السلامة، ولزوم العلماء الربانيين من الواجبات المعينة التي ينبغي على كل مسلم التمسك بها عند نزول الفتن، وقلة الصبر على العمل؛ ولأن الصبر جامع للأخلاق الفاضلة، والصبر يحتاجه المسلم وقت الفتن حتى يتمسك بالعبادات ويكثر اللجوء إلى الله؛ خاصة من قلة الأعوان على الطاعة وفساد الناس.

وقال شيخ الإسلام : فالصبر واليقين ينال بهما الإمامة في الدين .(٦)

- **وقال -رحمه الله- : (وعليك بالأمر الأول والتمسك به)**

وهي وصية من أنفس الوصايا وأعظمها، فإن الطريقة والهدى والصلاح فيما هم عليه أصحاب محمد ﷺ وأصحاب الأثر .

وقال سفيان الثوري - رحمه الله - : في وصيته لثابت بن محمد : إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فأفعل .(٧)

(١) لسان الميزان ٢ / ٢١٨
(٢) الجرح والتعديل ٣ / ٨١٣
(٣) سير أعلام النبلاء ٧٠/٧
(٤) الآداب الشرعية ٣ / ١١٣
(٥) الحلية ٣٩/٧
(٦) الفتاوى ٣٥٨/٣
(٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٤٢/١

- **وقال -رحمه الله- : (وعليك بالخمول فإن هذا زمان خمول)**

الخمول المقصود فيه : عكس الذكر والشهرة، وآثر هؤلاء الخمول لأنه أقرب إلى السلامة من أسباب الشر من الرياء والسمعة والعجب، وغير ذلك من أمراض القلوب، وفي زماننا تغير المطلوب وأصبحت الشهرة وحب المنزلة مطلوبة، ومحببة إلى النفوس، والمحذور ليس أن يذكر ويشكر، بل المحذور هو طلب الشهرة والحرص عليها.

- **وقال : (وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس)**

وهذا يبين ما سبق من المقصود بالعزلة التي قصدها سيفان الثوري - رحمه الله - وهي العزلة الجزئية، وليست العزلة التامة التي تكون بعيداً عن الناس، بحيث يشتغل بغنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر، أو إبل يرعاها أو أرض يزرعها ويصلحها، أو غير ذلك مما يحقق له العزلة الكلية التامة عن الناس.
وعن يوسف بن أسباط قال سفيان : كثرة الإخوان من سخافة الدين .[١]

- **وقال : (فإن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال : إياكم والطمع فإن الطمع فقر واليأس غنى وفي العزلة راحة من خلاط السوء) .**[٢]

وورد عنه - رضي الله عنه - أنه قال : **(خذوا بحقكم من العزلة)**، وفي لفظ : ((**خذوا بنصيبكم من العزلة**))[٣]

وحكي عن سفيان الثوري أنه كان يقول :

ما العيش الا القفل والمفتاح

وغــرفة تصــفقها الريـاح

لا صخب فيـها ولا صـياح .[٤]

- **وقال : (وكان سعيد بن المسيب يقول : العزلة عبادة)**[٥]

وهي عبادة من وجوه منها : قلة مخالطة الناس وهذا يحفظ سمعك وبصرك ولسانك من الحرام خاصة عند فساد الزمان.

وقال سفيان : هذا زمان السكوت ولزوم البيوت والرضا بالقوت إلى أن تموت .[٦]

وقال العلماء : العزلة فيها اعتزال الشر وأهله ولا يرغب في العزلة إلا صادق مع الله، لأنه اعتزل ليحفظ دينه وينفرد بربه سبحانه.

والعزلة : الاستئناس بالله ومحاسبة النفس على كل تقصير.

(١) الجرح والتعديل ٩٤/١
(٢) فتح الباري لابن حجر ١١ / ٨٣٣ في سنده انقطاع ورجاله ثقات عن عمر.
(٣) رواه الخطابي في العزلة ٥٣، والخبر فيه ضعف
(٤) العزلة للخطابي ١٥٢
(٥) التمهيد لابن عبد البر ٨ /١٥١
(٦) التمهيد ٤٤٣/١٧

- **وقال : (وكان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض فأما اليوم فقد ذهب ذلك والنجاة في تركهم فيما نرى)**

ومجالس الانتفاع هي مجالس الصحابة -رضي الله عنهم- والتابعين لهم بإحسان وأهل الخير والصلاح باقون إلى قيام الساعة لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، فمن وجد مجالسهم فليلزمها ولا يُهدى لها إلا موفق.

وقال ابن السماك : كتب لنا صاحب لنا : أما بعد .. فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فأصبحوا داء لا يقبل الدواء ففر منهم فرارك من الأسد واتخذ الله مؤنساً والسلام .

- **وقال : (وإياك والأمراء والدنو منهم وأن تخالطهم في شيء من الأشياء، وإياك أن تُخدع فيقال لك : تشفع فترد عن مظلوم أو مظلمة فإن تلك خدعة إبليس وإنما اتخذها فجار القراء سلماً)**

ثم عاد صاحب الوصية إلى التحذير من الأمراء والدنو منهم لأهمية هذا الأمر وعظم أمره وهذا التحذير من سفيان الثوري - رحمه الله - خاص لمن دخل عليه ولازمه وقد يكون الضرورة من هذه الملازمة محضاً لا يقابله تحصيل مصلحة شرعية وقد تقابله مصلحة شرعية أقل منه أو مثله أو أعظم منه والسلامة لا يعدلها شيء .

ولذلك يقول الأمام الفتني وهو : جمال الدين الهندي (ت ٩٨٦هـ) : وهذا لمن دخل مداهنة، ولكن من دخل آمراً وناهياً وناصحاً كان دخوله أفضل.[١]

وإن قتُل كان مخاطراً بنفسه في ذات الله وقد بين رسول الله ﷺ أن أفضل الجهاد كلمة عدل أو حق تقال عند سلطان جائز .

وقد ذكر النبي ﷺ فساد السلاطين في آخر الزمان وانحرافهم عن الحق والعدل وبين الموقف السليم الذي يجب أن يتخذ حيال ذلك والمتمثل في أمور :

١- **أولها** : السمع والطاعة لهم ما داموا مسلمين مصلين، وعدم قتالهم أو الخروج عليهم حتى يرى الكفر البواح، الذي عندنا من الله فيه برهان مما سماه الله ورسوله كفراً .
٢- **ثانيها** : الإنكار عليهم فيما يأتون من معصية لله والنطق بكلمة الحق أمامهم وترك مداهنتهم ومجاملتهم ويدخل في الإنكار كراهية ما هم عليه والبراءة منه ظاهراً وباطناً.
٣- **ثالثها** : اعتزالهم وعدم مداخلتهم إلا في سبيل النصح والأمر والنهي.

- **وقال : (وكان يقال : اتقوا فتنة العابد الجاهل وفتنة العالم الفاجر فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون)**

وهذا من أعظم الكلام فلا تغتر بالعابد الجاهل ولا بالعالم الفاجر، لا بعمل هذا العابد ولا بفتوى هذا الذي يداهن السلاطين .

وكان سفيان الثوري إماماً في هذا الأمر، وكان يهجر من تقلد القضاء عند الأمراء.

- **وقال : (وما كفيت المسألة والفتيا فاغتنم ذلك ولا تنافسهم)**

وهذه الوصية يجب على طالب العلم أن يغتمها ويوعيها قلبه، ويعلم أن السلف لم يتعاملوا مع الفتوى بأنها غنيمة، بل يعدونها بلاء يقومون به بعد القدرة عليه خوف الإثم .

(١) المجمع ٤ / ٩٩

ولابن القيم كتاب ضخم سماه أعلام الموقعين عن رب العالمين، تكلم فيه عن خطر الفتوى وأحكامها ومسائلها وقد عقد رحمه الله فصلاً لها في المجلد الثاني انظر صفحة (٤٤٩) إلى صفحة (٧٧٥) .

- **وقال : (وإياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله وينشر قوله أو يسمع منه)**

وهذه والله حقيقة البلاء العظيم والشهوة الخفية التي قد لا يسلم منها إلا من حفظه الله وعافاه، والتي انتشرت في كل زمان ومكان .

وقال الشافعي – رحمه الله - : (تمنيت أن الناس تعلموا هذا العلم ولم ينسب لي منه شيئا)[١]، وهذه والله النية التي ينفع الله بها صاحبها وينفع بعلمه أهل الأرض.

- **وقال : (وإياك وحب الرياسة فإن من الناس من تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة)**

وشهوة الجاه والرياسة هي أُمُّ الشهوات لأن الجاه إذا تحقق حقق بقية الشهوات وجلبها جميعاً، وأما غير شهوة الجاه فلا يلزم إذا تحققت أن تتحقق الجاه معها.

ولشهوة الجاه فروع كثيرة فإذا تعلقت النفس بها تحايلت على كل أسبابه التي توصل إليه بحيل تحير العقل؛ حتى تستدعي مدحاً بأساليب ذمها، وربما تتحمل ما تكره ليمدحها الناس حتى ربما تقتحم الموت لتمدح بالشجاعة، فتحب المدح من ورائها وهي ميتة، ولو لم تسمع أصوات المادحين، ولا يوجد شهوة تقود الإنسان وتأسر عقله كشهوة الجاه والرياسة إذا تمكنت منه. [٢]

- **وقال : (واحذر الرياء فإن الرياء أخفى من دبيب النمل، وقال حذيفة – رضي الله عنه - : سيأتي على الناس زمان يعرض على الرجل الخير والشر فلا يدري أيما يركب)**

وقد تواترت الأدلة وأقوال السلف في التحذير من هذا الداء العضال وقال ابن الجوزي - رحمه الله - : ولخوف الرياء ستر الصالحون أعمالهم حذراً عليها، وبهرجوها بضدها، فكان ابن سيرين يضحك بالنهار ويبكي بالليل، وقال : تعلموا صحة العمل من سقمه، فأني تعلمته في اثنين وعشرين سنة .[٣]

وقال عمر بن زياد : رأيت أبا أمامة أتى على رجل في المسجد وهو ساجد يبكي ويدعوا، فقال : أنت أنت لو كان هذا في بيتك .[٤]

لذلك تعرف سبب شكوى الناس اليوم بأنهم لا يجدون لذة العبادة التي يقومون بها، ومن أعظم الأسباب المانعة للذة العبادة الرياء والسمعة وغيرها، فالله سبحانه كريم يكرم عبده في الدنيا والآخرة، في الدنيا بلذة العبادة وفي الآخرة برضوانه إذا تحقق الإخلاص لله والمتابعة لرسوله ﷺ .

---

(١) التبان للنووي ٣٣
(٢) الفصل بين العقل والنفس ١٠٤
(٣) تلبيس ابليس ١٧٤
(٤) الزهد لابن مبارك ٥٠

- **وقال : (وقد ذكر عن رسول الله ﷺ قال : لا تزال يد الله - عز وجل - على هذه الأمة وفي كنفه وفي جواره وجناحه ما لم يمل قراؤهم إلى أمرائهم وما لم يبر خيارهم أشرارهم وما لم يعظم أبرارهم فجارهم فإذا فعلوا ذلك رفعها عنهم وقذف في قلوبهم الرعب وأنزل بهم الفاقة وسلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، وقال : إذا كان ذلك لا يأتهم أمر يضجون منه إلا أردفه بآخر يشغلهم عن ذلك).**(١)

وما نقرأه في هذا الأثر فقد حصل في زمننا ونشاهد بأعيننا، فقد مال القراء إلى الأمراء، وبر الأخيار الأشرار وقدموهم في المحافل قدوات للأمة وهذا من أشد البر وأعظمه.

وخيم الخوف على القلوب، وانتشر الفقر، وسلط الله أهل الظلم والفجور على ديار المسلمين .

- **وقال : (فليكن الموت من شأنك ومن بالك، وأقل الأمل وأكثر ذكر الموت فإنك إن أكثرت ذكر الموت هان عليك أمر دنياك)**

ومصداق ذلك قوله ﷺ من حديث أبي هريرة : **(أكثر من ذكر هادم اللذات)** راوه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وذكر الموت يورث الانزعاج من هذه الدنيا الفانية ويعجل التوبة ويصلح القلب، وقد قيل : كفى بالموت واعظاً !.

- **وقال : (وقال عمر -رضي الله عنه- : "أكثروا ذكر الموت إنكم إن ذكرتموه في كثير قلله وإن ذكرتموه في قليل كثره، واعلموا أنه قد حان للرجل يشتهي الموت" أعاذنا الله وإياك من المهالك وسلك بنا وبك سبيل الطاعة).**

أخي المسلم أين الأولون والآخرون أين نوح شيخ المرسلين أين إدريس رفيع رب العالمين أين إبراهيم خليل الرحمن أين موسى الكليم من بين سائر النبيين أين محمد خاتم النبيين أين أصحابه الأبرار أين الأمم الماضية أين الملوك السالفة أين القرون الخالية أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان أين الذين قهروا الأبطال والشجعان أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب أين الذين تاهوا الخلائق كبراً وعتياً أين راحوا في الحلل بكرةً وعشياً أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبةً وعزاً هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً أفناهم الله مفني الأمم وأبادهم مبيد الرمم وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم لم ينفعهم ما جمعوا ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا نسيهم الأقرباء والبعداء.

أخي لا تدري ربما فجأة تتوقف دقات قلبك فحينئذ يحين الأجل ومن الدنيا تنتقل إلى الآخرة وترتحل قال رسول ﷺ : ((**اكثروا ذكر هادم اللذات**)) فالموت هادم اللذات ومفرق الجماعات وميتم الأطفال ومرمل النساء وقاطع الأماني إنه الموت الذي ما ذكر في كثير إلا قلله ولا غالي إلا رخصة.

تيقن أخي حق اليقين أن ملك الموت كما تخطاك إلى غيرك فهو في الطريق إليك وأعلم أن الحياة مهما امتدت بك وطالت فإن مصيرها إلى زوال وما هي إلا أعوام وأيام ولحظات وتصبح وحيداً فريداً .

فكر أخي معي قليلاً إذا مضت عليك الأيام وجاءك اليوم تلو اليوم فانظر إلى آخر الأيام إن طويت رحلك وأذنت بالرحيل من هذه الدار أين الملذات والملهيات لم يكن شيئاً كأنك لم تنزل بذلك المكان .

لنعتبر بما مضى من الأزمنة والأوقات والشهور والأعوام كيف مضت وانقضت، وتصرم الشهر وانسلخ العمر.

تذكر عندما تتفاجأ بنزع الروح وسكرات الموت تذكر عندما تنظر إلى هذه الدنيا نضرت الفراق ونضرت الوداع

(١) وهذا من مراسيل الحسن (وقد ذكر) وهي صيغة تمريض ومعناه صحيح لغيره من الأحاديث

وعيون أهلك ترمقك بحسرة ولا يستطيعون رد القضاء عنك وقلبك يتقطع حسرة وندامة على خطايا أسرفت بها وعلى أيام أضعتها في اللهو .

ثم بادرَ أهلك بشراء كَفنك ، ثم قَلّبك المُغسّل ، ثم رفعت على النعش فوق أكتاف الرجال لتودع في قبرك ، ثم وضعت في القبر وحيداً فريداً غريباً ، وتقدم أحد أقاربك ليجعلك في القبر على الجنب الأيمن موجهاً إلى القبلة .

وبعدها ينقطع الأحياء بك مباشرة مع آخر عقدة يحلها من كفنك ممن تولى دفنك وإنزالك في القبر ، ثم يتقدم أبوك أو أخوك أو قريبك ليصف اللبنات على اللحد ويجتهد في سد الثغرات بينها بالطين رحمة بك، وبعد أن ينهال عليك التراب ويتم دفنك فإذا بك تبدأ أول مراحل الحياة البرزخية حيث تسمع صوت نعل ذويك وهم ينصرفون من عند قبرك ، ثم تواجه مصيرك الذي أعددت له بأعمالك في هذه الدنيا فتتوالى عليك الكربات بدءاً بفتنة القبر وسؤال الملكين .

ستندم يا عبدالله إن فرطت وحان الرحيل وأمسيت مريضاً تقاد ومنعت من التصرف فيما جمعت ومنع عنك العواد ، وكفنت بأبيض الثياب وحملت على الأعواد ، وأودعت في ضيق لحد وغربة مالها من نفاذ ، تغدوا عليك حسرات وتروح إلى يوم التناد فتخيل لنفسك يا ابن آدم إذا أُخذت من فراشك إلى لوح مُغسلك فغسلك الغاسل وألبست الأكفان ، وأوحش منك الأهل والجيران وبكت عليك الأصحاب والإخوان .

تفكر في حالك عند نزول ملك الموت سكرات وغمرات وكربات وحسرات ، وتفكر في حال جسمك بعد الموت وقد تقطعت أوصالك وتفتت عظامك وبلي جسدك وأصبحت قوتاً للديدان ... ثم تفكر في الصور إنها صبيحة العرض على الله -عز وجل – فتسمع الصوت فيطير فؤادك ويشيب رأسك فتخرج مغبراً حافياً عارياً ، وقد رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بساً وشخصت الأبصار ...

تفكر إذا برزت النار فأحرقت وزفرت وتفكر في حال المنصرف إما إلى الجنة عرضها عرض السموات والأرض ، وإما إلى نار تلظى والعياذ بالله .

تذكر أيها العبد المسكين يوم تخرج من قبرك وحيداً فريداً حسيراً كسيراً أسيراً خرجت متحيراً مبهوتاً مكشوفاً حقيراً ذليلاً عارياً لا ثوب يواريك خرجت إلى جبار السموات والأرض ليسألك ويحاسبك عن الأيام التي مضت والأعوام التي انقضت .

تذكر قدومك على الله ، تذكر يوم لقاء الله ، تذكر وقوفك بين يدي الله تذكر يوم العرض على الله في يوم تدافعت وتزاحمت الأمم وجثت على الركب .

تصور نفسك وأنت واقف مع الخلائق الذين لا يعلمهم إلا الله إذا نادى المناد على رؤوس الأشهاد إذ نودي باسمك على رؤوس الخلائق مع الأولين والآخرين .

أين فلان بن فلان يا فلان بن فلان هلم للعرض على الله في يوم كان مقداره خمسين الف سنة .

إنه يوم تنتهي عنده الأيام وتتبدد عنده الأوهام وتجمع فيه الخصوم وتنشر فيه الدواوين وتنصب الموازين .

إن يوم القيامة يوم العرض الأكبر ذلكم اليوم العظيم المهول يوم يقوم الناس لرب العالمين لذلك اليوم أهوال عظيمة وشدائد جسيمة وعجائب ودواهي عظام يحار فيها اللبيب وتشيب الولدان وينقطع الفؤاد وتطيش العقول وتبلغ القلوب الحناجر .

الأجساد عارية والأقدام حافية والقلوب وجلة والعقول ذاهلة والأبصار خاشعة .

فيا من غفل ولغى وسهى ولهى وفرط في طاعة رب الأرض والسماء يا من صد وعن طاعة الله ند تب إلى الله ارجع إليه أقلع فإن الله غفور ودود يغفر الذنب ويقبل التوب ويرضى بالرجوع إليه والسلام .[1]

(١) الفتيا لابن الجوزي ٣٤